التداول الإعرابي للنص القرآني "أمثلة جزئية وموجهات كلية"

معمر منير العاني
Moamar_monir@yahoo.com
الجامعة العراقية/ كلية الآداب

الملخص

ينتظم هذا المسعى في ركب البحث التداولي، متخذاً من إعراب النص القرآني مضماراً تطبيقياً، وهو يصدر عن رأي مفاده؛أنَّ نظرة فاحصةً في المنجز اللساني تكشف عن نسيج مؤتلف من الرؤى بين الموروث اللغوي القديم والاتجاه التداولي الحديث،واستظهار تلكم النظرات تفضي إلى الولوج في اتجاهات البحث اللساني، والوقوف إلى منطلقاته،وعدم التقييد بالدراسات التقليدية التي تعارف عليها الدارسون.

ونكشف– في ضوء المهاد المتقدم– عن بغية عمادها المكين أن التداول الوظيفي في هذه المدونة يتمثل بالشروط والقواعد اللازمة للملائمة بين أفعال القول ومقتضيات المواقف الخاصة به،أي:العلاقة بين النص والسياق،ويلاحظ باستمرار العلائق الوثيقة بين التداولية والدلالة والنحو،إذ يجمع بينهما مستوى السياق المباشر، مما يجعل التداولية قاسماً مشتركاً بين أبنية الاتصال النحوية والدلالية والبلاغية.

وقد استطاع عدد من النحاة الأوائل أن يدركوا المرتكزات – آنفة الذكر– بالوقوف على أهمية الاعراب في العملية الإبلاغية، ومن ذلك باب الخطاب الذي يقع به الإفهام من القائل،ومعرفة القصد من أغراض المتكلمين.

وليس صنيع النحاة في توجيه لفظة (والمقيمين) من قوله تعالى:﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(النساء١٦٢) ببعيد عن المنحى التداولي، وذلك بالنصب على التعظيم والمدح؛لأن المقام الإنشائي مقام ثناء على المؤمنين، فأسفر الرأي عن صياغة المعنى النحوي،وتحديده تبعاً لمكنون القرائن التداولية المختزلة في النص الكريم، ومن ثم معرفة ما صحبت به الأنماط الخطابية في ضوء السياقات والمقامات الواردة.

الكلمات المفتاحية:التداولية ، الاعراب، الفعل الكلامي، اللسانية ،القدماء.

Abstract

In this research, we try to take a deliberative express Quran text and proceed from the application akin lingual ancient Alghei modern And reveal the importance of research to know deliberative attitudes of the words and the relationship between text and context to get to the relationship significance and deliberative way.

The unmber of grammarians able to realize this catching for the importance of expressing speaker purposes.

In Rehat Koran manifested by revealing deliberative discourse destination and purpose of Quranic text relation receiver.

Keywords: deliberative, express, verb verbal, linguistic, ancient.

"مهاد تنظيري"

إذا محصنا مفهوم الإعراب عند النحاة وجدناه يشكل النظرية النحوية[1] وجوهرها لديهم، فعلى هدي منه بنوا قواعدهم وصاغوا ضوابطهم، فهل يقتصر مفهومه على اختلاف العلامات الإعرابية داخل الجملة لاختلاف

[1] نشطت بحوث ودراسات إعرابية منها: العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث، محمد حماسة عبداللطيف، ونظرة في قرينة الإعراب في الدراسات النحوية القديمة والحديثة، محمد صلاح الدين بكر، ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقاتها في القرآن الكريم، أحمد سليمان ياقوت، دراسات في الإعراب، عبدالهادي الفضلي، ظاهرة الإعراب في العربية، عبدالوكيل الرعيض، كتاب الإعراب محاولة جديدة لاكتناه الظاهرة، أحمد حاطوم، وغيرها.

العامل؟ وهل هذا المفهوم مجمع عليه كما يتوهم بعض المحدثين؟ وإذا كان ما زعموا حقاً فلهم أن يقولوا إن النحاة قد ضيقوا واسعاً في ميدان الدرس اللغوي، وحصروه في جزء يسير مما يقصد إلى تناوله، ورسموا له طريقة لفظية قاصرة على الشكل.

إن استقراء حصيفاً قادماً لمدونات التراث تفضي إلى ردود على الأسئلة – آنفة الذكر – .

قد دارت تعاريف الإعراب حول النص المعياري الذي ورد عند سيبويه في كتابه، قال:هذا باب مجاري أواخر الكلم من العربية، وهي تجري على ثماني مجار على النصب والجر والرفع والجزم والفتح والضم والكسر والوقف، وهذه المجاري الثمانية يجمعهن في اللفظ أربعة أضرب، فالنصب والفتح في اللفظ ضرب واحد والجر والكسر فيه ضرب واحد، وكذلك الرفع والضم والجزم والوقف[١].

ومضى ابن جني مبيناً وظيفة الإعراب بالقول: الإبانة عن المعاني بالألفاظ[٢]. وللإعراب بعد تركيبي عند الجرجاني تمثل في جودة التأليف والنظم، فالتقاء العامل بالمعمول في تركيب انسجمت ألفاظه وتضامت يعطينا حكماً إعرابياً دقيقاً يحمل المعنى المقصود ويدل عليه، يقول الجرجاني:لا يقوم في وهم ولا يصح في عقل أن يتفكر متفكر في معنى فعل من غير أن يريد إعماله في اسم ولا أن يتفكر في معنى اسم من غير أن يريد إعمال فعل فيه وجعله فاعلاً له، أو مفعولاً،أو يريد منه حكماً سوى ذلك من الأحكام مثل أن يريد جعله مبتدأ أو خبراً أو صفة أو حالاً أو ما شاكل ذلك...[٣]

ونتوخى في الإعراب أنه نظام علاماتي تفسيري يتميز بالحركة الفاعلة التي تعمل دوماً على نقل المعنى من داخل التركيب إلى خارجه بعد انتقال الأثر من أول الكلمة إلى آخرها، إنه يعمل على بث المعنى الكامن في الألفاظ بعد ائتلافها،هذه الألفاظ هي أجزاء الكلم: الاسم، والفعل، والحرف،التي تتوزع فيه العلامات وفق نظام الأصل والفرع، والمعرب والمبني"[٤].

ونستظهر في الظاهرة معطيات أخرى، فالحركات الإعرابية في التركيب تشكل أصغر وحدة دالة؛إذ لا يدل جزء لفظها على جزء معناها،وفي هذا السياق صرح الاستراباذي بالقول:إن قيل:إن قولك:مسلمان، ومسلمون وبصري، وجميع الأفعال المضارعة جزء لفظ كل واحدة منها يدل على جزء معناه، وكذلك تاء التأنيث في قائمة ولام التعريف... فيجب أن يكون لفظ كل واحد منها مركباً، وكذا المعنى فلا يكون كلمة بل كلمتين، فالجواب أن جميع ما ذكرت كلمتان صارتا من شدة الامتزاج كلمة واحدة، وكذلك الحركات الإعرابية[٥].

ولنا مقصد متعين من أهمية الإعراب في العملية الإبلاغية، نرصده من قول ابن فارس في باب الخطاب الذي يقع به الإفهام من القائل، والفهم من السامع، يقع ذلك من المتخاطبين من وجهين: أحدهما الإعراب، والآخر التصريف[٦].

ولعله يصح في الفهم ويستقيم أن يقال: إن الإعراب هو الذي نميز به المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين"[٧]، فله القصدية من الكلام: "الكلام قول مفيد مقصود"[١]، هذا من طرف الأول، وأما الآخر –

---

[١] الكتاب، أبو البشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، ط١، دار الجيل، ١٣/١.

[٢] الخصائص، أبو الفتح عثمان ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت، ٣٥/١.

[٣] دلائل الإعجاز، الإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: د.التنجي، ط/١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٥، ٣٠٣.

[٤] الأحكام النحوية بين النحاة وعلماء الدلالة، دليلة فروز، ط١، دار عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠١١.

[٥] شرح الكافية، محمد بن الحسن الاستراباذي الرضي، تحقيقك حسن بن محمد بن إبراهيم الحفظي، يحيى بشير مصطفى، ط١، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، ١٩٨٨، ٣١٢/١.

[٦] الصاحبي في فقه اللغة وستف العرب في كلامها، أبو الحسن أحمد بن فارس، تحقيق: أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٧٧م، ١٩٠.

[٧] المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي، تحقيق: فؤاد علي منصور، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، ٢٩٠/١.

التصريف– فإنه من فاته علمه فاته معظمه؛ لأنا نقول: وجد وهي كلمة مبهمة، فإذا صرفت أفصحت، فقلت: في المال وجداً، وفي الضالة وجداناً، وفي الغضب موجدة، وفي الحزن وجداً[٢].

ومما لا يحسن أن نتخطاه وإن ترامت أطراف الحديث تحس كنه ما ناقشت به اللسانيات الحديثة الحالة الإعرابية بوصفها موضوعاً أساسياً في النظرية اللسانية، وقد تتفاوت النظريات المعاصرة في قصورها للحالة الإعرابية، ومن ثم كيفية معالجتها؛ وذلك تبعاً لاختلافها منهجياً.

فيعد جومسكي الحالة الإعرابية في ضوء المدرسة التوليدية نظاماً فرعياً للنحو الكلي (universal grammar) بوصفه نظرية تعالج الملكة اللغوية، وذلك لصياغة المبادئ التي تدخل في عملها، وتحدد تلك المبادئ خصائص العبارات العامة في كل لغة إنسانية، وهو تفسير لحالة الملكة اللغوية الأولى قبل أي تجربة[٣].

ونحن نرى أن اللغات عنده من حيث تحقق الحالة الإعرابية نوعان: الأول ما تكون فيه الحالات الإعرابية ظاهرة من خلال ظهور النهايات الإعرابية، والآخر تكون الحالات الإعرابية فيه خفية، إذ لا تظهر النهايات الإعرابية علناً لكنها حاضرة في العقل، وهذا ما تؤكده المبادئ العامة لإسناد الحالة الإعرابية[٤].

وقد أطنب أحمد المتوكل عندما فرق بين نوعين من الإعراب: إعراب سطحي محقق، يطلق عليه مصطلح العلامة الإعرابية، وإعراب آخر عميق مجرد، يطلق عليه مصطلح الحالة الإعرابية؛ ولذلك فإنه يمكن للحالة الإعرابية أن تتحقق في السطح بشكل علامة إعرابية كما يمكن أن تتحقق كما في اللغات غير المعربة، أو في الإعراب المقدر، وهذا ما يميز الحالة الإعرابية عن العلامة الإعرابية، فضلاً عن رؤيته بأن الحالة الإعرابية تستند إلى المكونات انطلاقاً من المعلومات المتوافرة في البنية الوظيفية للجملة، ويمكن كذلك أن ترد أكثر من حالة إعرابية على المكون الواحد؛ ولذلك تقوم حالة إعرابية بحجب حالة إعرابية أخرى فيشير مثلاً إلى الحالة الإعرابية التي تقتضيها الوظيفية التركيبية، تحجب الحالة الإعرابية التي تخول المكون إياها وظيفته الدلالية[٥].

والذي يثير في النفس استحساناً أن ثبوت العلامة الإعرابية يقابلها تغير الحالة الإعرابية تبعاً لاختلاف النظم الجملي، ومن ثم يمكن أن نصل إلى مستصفى من القول في ظاهرة الإعراب عمادة المتين:

أن الاعراب يمثل نظاماً لغوياً يحكم تماسك مكونات التراكيب اللغوية، حتى يمكن النظر إلى تركيب في نص لغوي على أنه وحدة غير منفصلة، ولا يعدم أن يكون هذا الترابط التركيبي في المنظومة اللغوية حاملاً قيماً دلالية تفضي إلى التعبير عن معان عدة لذلك الترابط.

وهنا يأتي على وجه الأحكام إمكانية التعبير عن المعاني التي تحملها الروابط عن طريق العلامات الاعرابية بالمعاني النحوية، أو المعاني الوظيفية التي تشير إليها العلامة الإعرابية، ومن خلالها تستدل على تلك المعاني من: الفاعلية، والمفعولية، والسببية، والإضافة، وغيرها[٦].

---

[٨] شذور الذهب في معرفة كلام العرب، عبدالله جمال الدين بن هشام الأنصاري، تحقيق: عبدالغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع سوريا، ١٤٠٤هـ، ١٩٥.

[٢] المزهر، ٢١/١.

[٣] للاستزادة من عمق التحليل ينظر: المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها واستخدامها نعوم جومسكي، ترجمة وتعليق: محمد فتيح، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٣م، ٢٥٤.

[٤] ينظر: اللغة ومشكلات المعرفة، نعوم جومسكي، ترجمة حمزة بن قبلان المزيني، بيروت، ٩٣.

[٥] ينظر: من البنية الجملية إلى البنية المكونية الوظيفية المفعول في اللغة العربية أحمد المتوكل، دار الثقافة للنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٧م، (٧٣، ٢٧٣).

[٦] اتجاهات البحث في قضية الإعراب، عند اللغويين العرب المحدثين رسالة ماجستير لخالد الحجيلان، قسم اللغة العربية وأدابها، جامعة الملك سعود، ١٤٢١هـ، ٤٢.

وبمقتضى هذا الفيض أضحى من البين القول: إنه على الرغم من أن النحاة شغلوا بالمقال وأصوله التركيبية إلا أنهم عنوا بالمقام الخارجي وما يحيط بالظاهرة اللغوية من ملابسات تكتنفها، وهي متصلة بالمتكلم والمخاطب وظروف الكلام، فالجرجاني يأتينا بمقاربة لما تقدم مفادها:"ليس النظم شيئاً غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم"[١]

فنبصر به عن جنب بأن للإعراب مفهوماً تداولياً يتخطى القرائن الشكلية؛ لصلته بالعلاقات النحوية التركيبية، وهذا المنحى الوظيفي "تتصاع فيه أجزاء الملفوظات لنسق البناء التركيبي،وهي الصورة الحسية المثلى لإكمال جنين الدلالة، وما الإفضاء به إلا إعلان عن ميلاد المعنى"[٢].

ولا ينأى عن الخاطر أن الإعراب ذو بعد حسي يتمثل في الحركات،وآخر معنوي،وهو"التغيير الحاصل بهذه الحركات التي شكلت أداة ربط كشفت عن طبيعة العلاقة بين الألفاظ والإعراب، ولا يكون إلا انبثاق المعنى بعد تشكله في دلالة الخطاب"[٣].

ويستوقفنا أن المنجز اللساني يكشف عن نسيج مؤتلف من الرؤى بين الموروث اللغوي القديم والاتجاه التداولي الحديث، وأن استظهار تلكم الأنظار من ظاهرة الإعراب تفضي إلى الولوج في اتجاهات البحث اللساني والوقوف إلى إحدى مرتكزاته متمثلة باللسانيات التداولية[٤]؛ فهي تتجاوز الدراسة البنيوية للغة إلى دراستها في سياق استعمالها، ومراعاة القرائن الخارجية المحيطة بالقول، ولذلك عرّفها من أصحاب البحث التداولي بأنها: تعنى بأثر التفاعل التخاطبي في موقف الخطاب، ويستتبع هذا التفاعل دراسة كل المعطيات اللغوية والخطابية المتعلقة بالتلفظ، ولاسيما المضامين والمدلولات التي يولدها المدلول في السياق[٥]. إنها دراسة للاستعمال اللغوي الذي يقوم به أشخاص لهم معارف خاصة ووضعية اجتماعية معينة.

ولو قصدنا الولوج في مهام التداولية لتسنى لنا تبيان الآتي:

– دراسة استعمال اللغة التي لا تدرس البنية اللغوية نفسها، وإنما تروم دراسة اللغة في الطبقات المقامية المختلفة.

– شرح كيفية جريان العمليات الاستدلالية في معالجة الملفوظات.

– بيان أسباب أفضلية التواصل غير المباشر، وغير الحرفي على التواصل الحرفي المباشر.

– دراسة مكونات التخاطب (المخاطب، والمخاطب، والخطاب، والسياق) وتأثيرها في المقولات اللغوية من ناحية التفسير والتأويل.

فالمعطيات التي تكتنف الدرس التداولي هي[٦]:

– معتقدات المتكلم، ومقاصده، وشخصيته، وتكوينه الثقافي، ومن يشارك في الحدث اللغوي.

– الوقائع الخارجية، ومن بينها الظروف المكانية والزمانية، والظواهر الاجتماعية المرتبطة باللغة.

– المعرفة المشتركة بين المتخاطبين، وأثر النص الكلامي فيها.

---

[١] دلائل الاعجاز، ٢٩٣.

[٢] العربية والاعراب، عبدالسلام المسدي، ص٧٠، ط١، دار الكتاب الجديد، المتحدة، بنغازي، ليبيا، ١٢١٠.

[٣] المصدر السابق ٢٧٤.

[٤] التداولية هي الترجمة للمصطلح الانكليزي (Pragmatics) والفرنسي (Pragmatigue)

[٥] ينظر: دراسات في اللسانيات العربية عبدالحميد السيد، دار الحامد، الأردن، ٢٠٠٤، ١١٩.

[٦] ينظر: البحث اللساني والسيميائي طه عبدالرحمن، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية الرباط، جامعة محمد الخامس، ١٤٠١هـ: ٣٠١-٣٠٣

ويبوح هذا الملحظ بعدم جدوى دراسة الظاهرة الإعرابية بمعزل عن المحيط الخارجي؛ لأنه لا يحقق هدف التعبير المتمثل بالتواصل الإبلاغي؛ لأن اللغة واقع اجتماعي حي، ومن ثمَّ فما نرومه من رصد إعراب النص القرآني هو التلاؤم بين أفعال القول ومقتضيات المواقف الخاص به – العلاقة بين النص والسياق – ولحظ العلاقة بين تداولية الخطاب والدلالة والنحو، إذ تشكل التداولية قاسماً مشتركاً بين أبنية الاتصال النحوية والدلالة البلاغية فيتبين استعمال اللغة وما يتولد عنها من دلالات في مقامات خطابية تحقق التواصل ومقاصد النص الكريم.

الرصد الأول/"أطروحة الفعل الكلامي"

يبدو أن (أوستين) (Austin) هو من أسس لأطروحة الفعل الكلامي، و أقام بناءها (سوول)، ثم وسع مجالها – في أطوار– باحثون آخرون،هذا من جانب الأعلام في مسرد تأريخي عابر، وتقوم هذه النظرية على فرضية أساسها أن "الجمل في اللغات الطبيعية لا تنقل مضامين مجردة، وإنما تؤدي وظائف تختلف باختلاف السياقات والمقامات"[١]، فتفيد طلباً، أو سؤالاً، أو وعداً، أو غيرها مما يحققه السلوك اللغوي من فعل.

وقد تم – في إطار هذه الأطروحة – صرف النظر في الدراسات التداولية من الكلمة أو الجملة كوحدات تحليلية إلى وحدة الفعل باعتبارها الوحدة الأساسية الصغرى التي تقوم عليها العملية التواصلية"[٢].

ففعل الانجاز هو ما يتصل بالجانب المقامي للجملة،" الذي يواكب فعل القول بفروعه الثلاثة؛ ليربطها بقصد المتخاطبين وأغراضهم من مقول الجملة،كأن يكون القصد منها الإخبار،أو السؤال،أو الأمر، أو النهي، أو الوعد، أو الوعيد، وغير ذلك من الأغراض التبليغية التي ينوي المشاركون في عملية التبليغ تبادلها فيما بينهم"[٣]؛ لأن التداولية تنظر إلى اللغة بأنها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية.

ويمكن القول:إن الخطاب القرآني قد ارتقى على كل الخطابات في هدف التأثير في المخاطب، وتعديل مواقفه، بآية إعجازه البلاغي المكتنف بغرض الإبلاغ، لذا يمكننا أن نستظهر شواهد من الهدي المبارك، ثم نقف إلى مجموعة من الأفعال الأدائية التي تضبطها جملة من العلاقات المتسقة في عملية إبلاغه.

ومن ذلك قوله تعالى:﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء ١٦٢)

خطاب التفسير الذي بين أيدينا لا يخلو مما تحدثنا عنه في أنه يتضمن الكثير من القضايا التداولية مثل: العلاقة بين الإنشاء والخبر في الفعل الكلامي، كتطرقه لآيات خبرية في الظاهر، ولكنها إنشائية في جانب آخر،وقد استطاع عدد من النحاة الاوائل أن يدركوا الوشائج بين الإعراب والدلالة والتداولية، ومنهم سيبويه الذي ذكر في كتابه تعقيباً على الآية الكريمة بأنه لو كان رفعاً كان جيداً، فأما (والمؤتون) فمحمول على الابتداء، وأعرب (والمقيمين) منصوبة على التعظيم والمدح[٤].

ويبدو أن التحليل كشف عن نباهة سيبويه من خلال تفسير الظاهرة الطارئة على بنية التركيب النحوي، فاتبع في تحليل التراكيب "وصف المواقف الاجتماعية التي تستعمل فيها، وما يلابس هذا الاستعمال من حال المخاطب وحال المتكلم وموضوع الكلام، وقد هداه هذا الاتساع إلى الكشف عن البنية الجوانية للتراكيب النحوية،

---

[١] التواصل والحجاج، سلسلة دروس رقم (٢١٠) كلية الآداب، أغادير، ١٩٩٣-١٩٩٤ (١١).

[٢] التداوليات، ٢٢، عبدالسلام إسماعيلي علوي.

[٣] الفعل اللغوي، ٩٨، بين الفلسفة والنحو، يحيى يعطيش، ضمن كتاب التداوليات.

[٤] ينظر: الكتاب، ٦٣/١

ورسم خطوط هادية في تعلم العربية تعلماً يضع كل تركيب موضعه ويعرف كل مقال مقامه[١]، فذهب مذهباً تداولياً مختاراً الإعراب على التعظيم والمدح؛ "لأن المقام الإنشائي مقام ثناء على المؤمنين".

إن عدول النسق الإعرابي بمجيء الملفوظ منصوباً قد حمل مكنوناً تبليغياً أضفى بعداً جمالياً، فالتلفظات الإنشائية ليست مجرد جزوم وظيفتها الأساس هي الوصف،ولكنها "تلفظات موجهة للقيام ببعض الأفعال المرتبطة بسياق الاستعمال...، فلاشك أن التلفظات الإنشائية ليست لها قيمة وصفية صرف، ولكن قيمتها الدلالية تتحدد من خلال الغرض الكلامي الذي تسعى إلى تحقيقه"[٢].

وتعهد ابن عاشور باكتناه استعمال الملفوظات قال إنها "طريقة عربية في عطف الأسماء الدالة على صفات محامد، على أمثالها، فيجوز في بعض المعطوفات النصب على التخصيص بالمدح، والرفع على الاستئناف للاهتمام، كما فعلوا ذلك في النعوت المتتابعة، سواء كانت بدون عطف أم بعطف، كقوله تعالى:﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(البقرة ١٧٧)

والظاهر أن هذا مما يجري على قصد النفس عند تكرار المتتابعات[٣].ومن تمام الإحاطة بالمسألة أن نقول:إن قراءة أدبيات تداولية أفعال الكلام تدلنا على أن الفعل الكلامي يمتلك أغراضاً إنجازيه متباينة بتباين ملابسات استعماله، ويمكننا أن نسلم لهذا التقريب من الشاهد القرآني في قول الحق – جل اسمه –﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾(المسد ٤)

يستوقفنا قول الزمخشري:" قرئ (حمالة) بالنصب على الشتم، وأنا استحب هذه القراءة"[٤].

هدانا هذا التحليل إلى أن التفسير التداولي للمنطوقات يبين أن محتوياتها التبليغية ترتبط بقوة بالسياقات المقامية التي أثارها الخطاب، وللتخصيص بعد التعميم ممكن أن نرقب ما دوّنه الزركشي في برهانه، فجعل ذلك في "فصل الجمل في مقام المدح والذم أبلغ من جعلها نمطاً واحداً، ويصادفنا قول أبي علي الفارسي، إذ ذكرت صفات في معرض المدح والذم فالأحسن أن يخالف في إعرابها؛ لأن المقام يقتضي الإطناب، فإذا خولف في الإعراب كان المقصود أكمل؛ لأن المعاني عند الاختلاف تتنوع وتتفتن، وعند الإيجاز تكون نوعاً واحداً... ومثله في الذم (وامرأته حمالة الحطب) بنصب حمالة"[٥]. على الذم، وربما دل هذا النمط الجملي على "مواجهتها أنواعاً مخصوصة من العذاب تناسب أفعالها، وما كسبت أيديها في عدائها للإسلام، وفي أذيتها لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[٦].

ولإيفاء حظ المسألة يتجلى القادم بأنَّ حساب المعاني لا ينبغي أن يقف عند حدود بنية النص السطحية أو مدلول الهيئة، فالعمدة في حساب المعنى تكون لبنية النص العميقة أو مضمون الكلام؛ لذا فقراءة النصب استناداً إلى معطى تداولي لا يستند إلى إعراب معزول عن مستوى تداول الملفوظ، بل يستند إلى استنباط الدلالة

---

[١] نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، نهاد الموسى،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ،١٩٨٠، ٩٩.

[٢] المقاربة التداولية للإحالة، يوسف السياوي، ٤٦٧.

[٣] التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ط١، مؤسسة التاريخ، بيروت، ١٤٢١، ٢٠٠م، ١٠٦/٥.

[٤] الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم الزمخشري الخوارزمي، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٤٩٥/٤.

[٥] البرهان في علوم القرآن، محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ٤٤٨/٢.

[٦] الاتساع في المعنى، مقبول علي بشير النعمة، ط١، عالم الكتب الحديث، ٢٠١١، ١٧١.

عن طريق المقام وفهم المخاطبين، باستحظار الشروط التداولية لتأويل الخطاب وفهمه، وقد استند النحاة ومنهم الوظيفيون إلى القصدية، ومعرفة غرض الباث بوصفه قرينة تداولية في استكناه الدلالة المستقاة من الخطاب"[١]. فالمقام ضرورة رئيسة في فهم المقال.

ويأتينا خطاب التفسير بتبصرة للتداول الوظيفي في إعراب قوله تعالى ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾(الحجر ٦٦)، (ذلك الأمر) مبهم يفسره (أن دابر)، ومحله النصب على البدل منه، وفي ذلك تفخيم للأمر وتعظيم له [٢].

ويقتضينا التبصر بما استقدمناه إلى تقبل أن البدل وإن كان هو المقصود بالنسبة لا يؤدي هذه المعاني البلاغية إلا بذكر المبدل منه فبوجودهما تحصل فائدته، كالمضاف والمضاف إليه، فإن المضاف هو المقصود بالنسبة، ولكنه يكتسب من المضاف إليه المعاني الكثيرة[٣]، فالحصيلة المستخلصة لا تبتعد عن المنحى التداولي من خلال الجانب الاستعمالي للغة، وتقدير نموذج سياقي تنخرم فيه شروط المطابقة بين النسبة الكلامية والنسبة الواقعية الخارجية والنسبة العقلية كما يعّبر البلاغيون والتداوليون"[٤].

فالقراءة يمكن تقودنا إلى المفهوم السياقي التداولي، وهو ما رقنه الزركشي في باب: "الإيضاح بعد الإبهام؛ ليرى المعنى في صورتين، أو ليكون بيانه بعد التشوق إليه؛لأنه يكون ألذ للنفس،وأشرف عندها،وأقوى لحفظها وذكرها"[٥]. فالأنموذج المقدم ينطلق من مقاربة موضوع الفعل الكلامي، ومن افتراض فضاء مشترك يجمع المتكلم والمخاطب،ويشكل قاعدة صلبة في نجاح التواصل اللساني، ويتحقق من خلاله ملائمة تأويل الملفوظات مع صدق المعلومات المتوصل بها، ففيه: قصد إخباري يقود المتكلم المخاطب إلى معرفة خبر معين، وقصد تواصلي يتداول فيه الأغراض التبليغية.

ويبلغنا استجلاء تداولي آخر ينبئ عن أن أفعال اللغة تشكل أغراضاً كلامية مختلفة وتقوم على أساس الكفاية التبليغية التي يتوفر عليها المتكلم في تعيين الموضوعات الخارجية، ثم الكفاية التأويلية التي يستند إليها المخاطب في استنتاج هذه الموضوعات.

الرصد الثاني/منحى الاستلزام التخاطبي

ذكر بعض من يتسنم أسنمة البحث التداولي أن الاستلزام التخاطبي نظرية خاصة بكيفية الاستعمال اللغوي، وقد أرسى دعائمها (غرايس) (Grice) وقامت على مبدأ لنتكلم فيما يقتضيه الغرض من التواصل، ويتوقف تأويل الملفوظات على معنى الملفوظ والسياق المقامي لإنتاجه، وزادوا عليه مبدأ التعاون؛ ليسمح بانسجام معاني الملفوظ مع المقصود من التخاطب[٦].

وليس ببعيد عن وعي القدماء أن يكون موئل مراعاة المقام في المعاني ولكل من الخاصة والعامة معان يخاطبون بها،يقول الجاحظ: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين

---

[١] البعد التداولي في كتاب سيبويه، مقبوس ادريس، ط١، عالم الفكر، بيروت، ٢٥٢.

[٢] ينظر: مشكل إعراب القرآن ٤١٥، مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق حاتم صالح الضامن، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ، البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، زكريا عبدالمجيد النوني، دار الكتب العلمية، ط٢، ت٢٠٠١، ٤٤٩/٥

[٣] ينظر: شرح المفصل ١١٣٠/١

[٤] البعد التداولي في كتاب سيبويه ٢٤٦.

[٥] البرهان، ٤٧٧/٢.

[٦] التداوليات على اسناد اللغة. ٨٧.

أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات[١].

ومهما يكن من أمر فالبلاغيون إذا قالوا (مقتضى الحال) فالمعنى: هو ما يتطلبه أحد الأنماط النوعية للمواقف من رعاية في الكلام،"وهكذا يمكن للمرء أن يفكر في أنواع من المواقف لكل منها مطالب أسلوبية معنية"[٢].

وينسحب الأمر إلى النحو العربي، فمحيط الحدث الكلامي وسياقه والمتغيرات الخارجية كانت حاضرة في وعي النحاة من خلال وصف الظواهر وتفسيرها، وتحديد إعراب الألفاظ، فيراه نهاد الموسى مستأنساً لديهم باطراد مستشعراً تحليلاتهم على نحو "يمثل استخراجه إحياءً لأصل من أصولهم،وإن لم يصرحوا به تصريح اللسانيات الاجتماعية والحقول والملابسة لها في هذه الأزمنة"[٣].

وثمة توجيه يقضي بأنه لا تواصل ممكن إذا كان الخطاب مجرد تراكم لعبارات لغوية لا ينتظمها جامع مقامي، "فبنية العبارات اللغوية تعكس إلى حد بعيد المضامين التي تحملها، والأغراض التواصلية التي تحققها في طبقات مقامية معينة"[٤]. ومن قبل قال الجرجاني: "لا نُوجِبُ الفصاحة للفظةٍ مقطوعةٍ مرفوعةٍ من الكلام الذي هي فيه، ولكنا نُوجبها لها موصلةً بغيرها، ومُعلَّقاً معناها بمعنى ما يليها"[٥]

وإذا كان الهدي السابق قد رسم بوضوح معالم الرؤية التداولية ودورها في عملية التواصل، فلا غرو أن يعني التخاطب برافدين؛ أحدهما العرفي وفيه الاستدلالات والاعتقادات والنوايا والآخر، الرافد التواصلي، وفيه: أغراض المتكلمين واهتمامهم ورغباتهم"[٦]. ومن أسمى غايات التداول الحجاجي وظيفة الاقناع، "فإنها أعلق بمجالات تداولية صريحة للفعل الكلامي؛ لأن كل فعل اقناعي يقوم على افتراضات سابقة بشأن عناصر مقام التواصل والتبليغ"[٧].

قوله تعالى:﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(الأعراف ١٦٤).

(معذرة) نصبت من جهتين:إحداها أنها مصدر، والأخرى:أن التقدير فعلنا ذلك معذرة[٨]، إن أجلى إيضاح حاضر ما ذكره سيبويه في التفريق بين الرفع والنصب، قال:لم يريدوا أن يعتذروا اعتذاراً مستأنفاً من أمر ليُموا عليه، ولكنهم قيل لهم: لِمَ تعظون قوما قالوا موعظتنا معذرة إلى ربكم، ولو قال رجل لرجل: معذرة إلى الله، وإليك كذا وكذا يريد اعتذراً لنصب، ومثل ذلك قول الشاعر:

يشكو إليَّ جملي طُول السّرى صبر جميل فكلانا مبتلى

والنصب أكثر وأجود؛ لأنه بأمره[٩].

---

[١] البيان والتبيين ١٣٨/١، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ط٥، مكتبة الخانجي، ١٩٨٥.

[٢] المصطلح البلاغي في ضوء البلاغة الحديثة، تمام حسان، مجلة فصول، م(٧)، ع، (٣-٤) ١٩٨٧، (٣٥).

[٣] الصورة والصيرورة بصائر في أحوال الظاهرة النحوية ونظرية النحو العربي، نهاد الموسى ١٢١-١٢٢.

[٤] مبدأ الوظيفية وصياغة الأنحاء، أحمد المتوكل، مجلة المناظرة، س(٢)، ع(٣)، (١٩٩٠) (٣٩).

[٥] دلائل الإعجاز ٣٠٩

[٦] علم التداوليات ٤٠-٤١.

[٧] الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبدالرحمن، المركز الراتامي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٠، ٤٦.

[٨] ينظر: إعراب القرآن للنحاس، عالم الكتب، بيروت، ط٣، تحقيق: زهير غازي زاهد، ١٩٨٨، ٢٥٤/٨.

[٩] الكتاب، ٣٢٠/١.

إن تأملنا لهذا العرض يجعلنا على بصيرة بأنه كشف عن الغاية التداولية، وأن لكل مبنى وظيفة إبلاغية توجهها ملابسات الخطاب وأغراضه، فقد تعامل مع الحدث الكلامي على أنه رسالة تبلغ على المخاطب، وهو "ينطلق من مفهوم الخطاب القرآني الذي يمثل النموذج المثالي لأنواع الخطاب عند العرب، ثم يندرج هذا المثال إلى ألوان الخطاب الأخرى بما لها من صلة بفنون القول في العربية أو الطبقات الاجتماعية وكلامها، مما أدى إلى الغوص في قضايا الاتصال (Communication) وشروطه، وكذا الأداء (Performonce) وطرقه المختلفة من لفظ وإشارة وغيره ذلك"[١].

وباستجماع تلكم التوصيات نرى أن السياق ليس حلة مجردة معزولة عن الإطار الذي ينجز فيه الكلام، ويتحدد السياق الواقعي بمدة من الزمان والمكان حين تستوفى خواص الملفوظ، فالسياق عملية شاملة تستدعي كل ما يحيط بالخطاب من عناصر تساعد على ضبط المعنى، فستكون هناك آيات تكشف عنه وتسهم في تأويله حتى يستطيع الوصول إلى مبتغاه من مقاصد، ولنا في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (الاعراف ٥٣)، (نردَ) بنصب الدال، قال ابن جني: الذي قبله مما هو متعلق به قول (فهم...) فعطف (نرد) على (يشفعوا) وهو منصوب؛لأنه جواب الاستفهام، وفيه معنى التمني، وذلك انهم قد علموا أنه لا شفيع لهم، وإنما يتمنون أن يكون لهم هناك شفعاء فيردوا بشفاعتهم فيعملوا ما كانوا لا يعملونه من الطاعة، فيصير به المعنى إلى انه كأنهم قالوا: إن نرزق شفعاء يشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل، وذلك أنهم مع نصب (نرد) تمنوا الشفعاء، وقطعوا بالشفاعة، وتمنوا الرد أيضاً، وخمنوا عمل ما لم يكونوا يعملونه أي: إن نردد نعمل غير الذي كنا نعمل، كأنه قال: أو هل فنعمل[٢].

حاصل الكلام المتقدم يسلمنا إلى أن التواصل اللفظي يفضي إلى جعل تأويل الملفوظات محاطاً بمعلومات سياقيه تستقى من المحيط الخارجي؛ لذا غدت مسألة الاجراءات التداولية وحدود اقترانها بالشفرة اللغوية، أو استقلالها عنها أكثر وضوحاً في إطار المنحى المعرفي الجديد، فمسارات الاستنتاج المرتبط بتأويل العبارات لم تعد خاصة بالشفرة اللغوية فقط، وإنما تستند إلى قدرات معرفية عامة غير خاصة باللغة[٣].

ومما يلحق بركب التوجيه أنه على "رفع الفعل المسؤول أحد الأمرين الشفاعة، والرد إلى الدنيا، وعلى النصب المسؤول أن يكون لهم شفعاء أما لأحد الأمرين من الشفاعة في العفو عنهم والرد إن كانت (أو) عاطفة، وإما لأمر واحد إذا كانت بمعنى إلى أن، إذ معناه حينئذ يشفعون إلى الرد، وكذا بمعنى حتى أن يشفعون حتى يحصل الرد[٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾(الاحزاب ٤٨)، (أذاهم) يحتمل إضافته إلى الفاعل والمفعول، يعني ودع أن تؤذيهم بضرر، أو قتل، وخذ بظاهرهم وحسابهم على الله في باطنهم، أو ودع ما يؤذك به، ولا تجازهم عليه حتى تؤمر"[٥].

---

[١] التوليد الدلالي في البلاغة والمعجم، ط١، دار تويقال للنشر، ١٩٨٧، محمد غليم، ٢٥.

[٢] المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق علي النجدي ناصف، عبدالحليم النجار، عبدالفتاح شلبي، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية، القاهرة، ١٩٩٩م.

[٣] علم التداوليات: ٤.

[٤] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود بن محمود بن عبدالله الحسيني الالوسي، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٣، ١٢٨/٨.

[٥] الكشاف ٥٥٦/٣.

إن رصد النظام النحوي يؤذن بالسماح للفظ (أذاهم) بأحد المعنيين[١]:

أحدهما:الإضافة إلى الفاعل، فيكون المعنى (أن تؤذيهم)، والأخر:الإضافة إلى المفعول، فيكون المعنى (أن يؤذك)، ولكن القرينة الدالة على المقصود تظهر في وقائع السيرة النبوية الشريفة، إذ كان المشركون هم الذين يؤذون النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وليس لنا بعد تلكم الملاحظ إلا أن نجد أن هذا التوجيه قد تبنى المنهجية التداولية في وصف الأشكال النحوية التي ترد في الخطاب، مستعيناً بإدخال بعض القرائن القبلية المنفصلة – السيرة النبوية –؛ مما يفضي إلى صياغة المعنى النحوي وتحديده تبعاً للقرائن التداولية المختزلة في ذهن المتلقي، ومعرفة ما ترمي إليه الأنماط الخطابية في ضوء السياق والمقام الذي يرد فيه.

ويلامس هذا البسط ما اهتدى إليه عدد من الدارسين ـ منهم تمام حسان ــ من تفسير العلامات الإعرابية ، و تحديد المباني، والوظائف من خلال نظرية القرائن النحوية، ومن أقسامها: قرائن عهدية ذهنية تنتسب إلى القرائن العقلية مفادها: أن المتكلم يعرف مسبقا أن ثمة فكرة مترسخة في ذهن المخاطب حول مسألة مألوفة، ولهذا عوض أن يبرر المتكلم في كلماته مثلا : أنا ذاهب إلى الكلية لأدرس، يستغني عن لفظه "لأدرس" علما منه أن العرف اصطلاح على أن الذهاب إلى الجامعة يكون بالضرورة من أجل الدراسة والتحصيل، فيعرف المقصود من الكلية بالعهد الذهني[٢].

وفي القوة الإنجازية للأفعال: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ (النساء من الآية١٧١).

قدم سيبويه رؤية حريصة فقال: وإنما نصبت خيراً لك وأوسع لك؛ لأنك حين قلت انته فأنت تريد أن تخرجه من أمر وتدخله في آخر، وقال الخليل كأنك تحمله على ذلك المعنى، كأنك قلت: انته وادخل فيما هو خير لك، فنصبته؛لأنك قد عرفت أنك إذا قلت له: انته أنك تحمله على أمر آخر فلذلك انتصب، وحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إياه في الكلام، ولعلم المخاطب أنه محمول على أمر حين قال له انته فصار بدلاً من قوله: ائت خيراً لك وادخل فيما هو خير لك[٣].

لا شية في التوجيه ـ آنف الذكر ـ،إذ بين المعنى البلاغي في الحذف الذي يقصد الإيجاز من غير إخلال بالمعنى، "مراعاة لحال المخاطب، وتخفيفاً عنه من الألفاظ التي لا فائدة معنوية من ذكرها وتكرارها، ويكون حذفها من الجمل والعبارات عين البلاغة"[٤].

وكان تماماً على ما تقدم وتفصيلاً له أن يكون مفاد هذا الكلام أن المتكلم حين ينهي المخاطب عن فعل شيء ما فإنه يتوخى من ذلك إقدام المخاطب على فعل شيء آخر، أي أنه ينهاه عن المرغوب عنه، ويأمره ضنياً بأن يرغبه، بمعنى أن وجه الخلاف بين الأمر والنهي أن الأمر يسوق المأمور إلى أمر يحدثه، والناهي يثني المنهي عما عقد العزم على فعله، ومن ثم انفراد الأمر والنهي بقوة الاضمار ويحكم يفتقر إليه[٥].

---

[١] اجتهادات نحوية، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٧، تمام حسان، ٢٠٤.

[٢] ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها ، تمام حسان ، ط٤، القاهرة، عالم الكتب، ٢٠٠٤ ، ص١٩٠

[٣] الكتاب، ١/٢٨٣-٢٨٤.

[٤] الفكر البلاغي عند النحويين العرب، عزام الشحراوي، ط١، دار البشير، عمان، ٢٠٠٢، ، ٢٣.

[٥] الأفعال غير الواجبة، عند سيبويه الأمر، النهي نموذجاً، نعيمة الزهري من كتاب التداوليات علم استعمال اللغة، ٢٩٤.

ولعلنا لا نقف دون القصد إن قلنا: إن انتصاب (خيراً) بمضمر، وذلك أنه لما بعثهم على الإيمان وعلى الانتهاء عن التثليث علم أنه يحملهم على أمر فقال (خيراً لكم) أي: اقصدوا أو ائتوا أمراً خيراً لكم مما أنتم فيه من الكفر والتثليث، وهو الايمان والتوحيد"[١].

الرصد الثالث/القوة الإنجازية الحرفية

نصدر عن قناعة ترسخت بعد طول لبث بالمصنفات اللغوية بأنها: القوة الدلالية المؤشر لها بأدوات تصبغ الجملة بصبغة أسلوبية ما كالاستفهام، والأمر ،والنهي،والتوكيد، والنداء، والاثبات، والنفي[٢].

إن إطلاق الألفاظ في جمل مفيدة ذات بناء نحوي سليم وذات دلالة يفضي إلى مقوله (الفعل اللغوي) وله مستوياته الصوتية والتركيبية والدلالية، وتحدد بقرائن السياق لتحديد قصد المتكلم، أو غرضه من الكلام، ويتصل به الفعل المتضمن في القول،"فالوظائف اللسانية الثاوية خلف هذه الأفعال هي القوى الانجازية، ومن أمثلة السؤال: إجابة السؤال،إصدار توكيد أو تحذير ،أما الفعل الناتج عن القول وما يصحبه من فعل متضمن في القول (القوة) فقد يكون الفاعل، وهو هنا الشخص المتكلم قائماً بفعل ثالث هو التسبب في نشوء آثار في المشاعر والفكر، ومن الأمثلة: الاقناع، والتضليل، والإرشاد (الفعل التأثيري)[٣].

تأسيساً على الافادة المركوزة فيما سبق يمكن استغلال الأداة لتوجيه التركيب النحوي على المستوى الأدائي إلى أكثر من معنى، ومنه في قول الحق تعالى:﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾(الليل ١١)، أي ولا يغني عنه، على أن (ما) نافية أو أي شيء يغني عنه ماله الذي يبخل به على أنها استفهامية"[٤]. وهو استفهام إنكار وتوبيخ، ويجوز على هذا الوجه أن تكون الواو للاستئناف، والمعنى: وما يغني عنه ماله الذي بخل به[٥].

ومما ينبغي التحوط له أن هذه التفسيرات ينفتح عليها النص الكريم كما أبان الخطاب القرآني، ذلك أن الأداء العالي يؤكد في أحد وجوهه طواعية اللغة لاستيعاب مهارات عدة، لا تقف عند حدود إمكانية التشكل بما يكافئ المعنى الذي يقصده المتكلم،أو إمكانية أداء المعنى جمالياً، أو مثيراً للشعور أو الفكر أو للخيال، فيمكن للأداء صياغة تراكيب لغوية تستوعب حزمة من المعاني من دون أن يعتريها أي قصور، فيبدو التركيب في النظام النحوي كأنه يحرك المعنى في أكثر من اتجاه في وقت واحد[٦].

نخلص من التمحيصات السابقة أن الفيصل في تحديد القوة الانجازية لأية جملة أي غرضها أو مقصدها هو السياق بمفهومه الواسع، أو "صيغ وأدوات دالة على الأمر والاستفهام والتعجب، أو قرائن صوتية تنغيمية"[٧].

وهناك نسيج متواصل من العلاقات تتحدد داخل مواقف كلية تصبح فيها اللغة أفعال التواصل لا أقول متراصة خالية من الدلالات والإحالات المرجعية.

قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ (البقرة ٨٧) أدخلت الهمزة بين السبب

---

[١] الكشاف،٦٢٦/١.

[٢] ينظر: اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، أحمد المتوكل، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ٢٠١٠، ٢٥-٢٦.

[٣] نظرية التداوليات، ٥٢.

[٤] روح المعاني، ١٥٠/٣٠.

[٥] التحرير والتنوير، ٣٦٥/٢٠.

[٦] ينظر: الاتساع في المعنى، ١٣٦.

[٧] الفعل اللغوي بين الفلسفة والنحو،يحيى بعيطيش، من كتاب التداوليات، ٨٩.

والمسبب للتوبيخ على تعقبيهم ذلك بهذا، والتعجيب من شأنهم على معنى (ولقد آتينا موسى الكتاب)، وأنعمنا عليكم بكذا وكذا لتشكروا بالتلقي بالقبول، فعكستم بأن كذبتم، ويحتمل أن يكون ابتداء الكلام،والفاء للعطف على مقدر كأنه قيل: أفعلتم ما فعلتم – فكلما جاءهم – ثم المقدر يجوز أن يكون عبارة عما وقع بعد الفاء فيكون العطف للتفسير، وأن يكون غيره مثل (أكفرتم النعمة واتبعتم الهوى) فيكون لحقيقة التعقيب[١].

وينعقد النظر على قول ابن عاشور بأن الفاء هنا تسبب الاستفهام التعجيبي الإنكاري على ما تقرر عندهم من تقفية موسى بالرسل، أي قفينا موسى بالرسل فمن عجيب أمركم أن كل رسول جاءكم استكبرتم[٢].

وعلى هذا النسيج يمكن أن نستجمع القول بأنهم استطاعوا أن يتمثلوا فكرة السياق من جميع أطرافه، ويأتي الإطار البنيوي في المقدمة، ومن ثم توصلوا إلى تنظير يوافق قصد الخطاب.

ولو دققنا في مقصد التحليل لألفينا أن سياق الموقف في هذا النص الكريم هو الذي تحدد بدقة القوة الإنجازية لحرف العطف، فاستحضار الموقف التبليغي يكشف بوضوح ما إذا كان القصد منها فعل تعجباً أو غرضا انجازياً توبيخياً.

صفوة القول

لعله ليس من سقط المتاع أن نرقن:إن البحث اللغوي زاحز بالإشارات التي توحي بأنه منظم بطريقة منهجية تستطيع من خلالها أن نطل على نافذة التداولية؛ لذا فإن اللجوء إلى الفكر اللغوي القديم له ما يسوغه، فهو فكر يؤشر إلى ضرورة معالجة الظواهر اللغوية معالجة متعددة الأبعاد تأخذ بالحسبان الترابط القائم بين الخصائص الصورية للعبارات اللغوية وبين خصائصها التداولية.

وقد حاول البحث أن يرصد مقاربة جزئية بين أنظار القدماء والتداولية المعاصرة متخذاً الإعراب القرآني مضماراً تطبيقياً،فوقف على قضايا أنبهوا إليها، وبينوا نظارتها، وما تؤديه من أغراض بعينها في مقامات وملابسات محددة.

وانسرب المسعى إلى تبيان أن أرباب التراث لم يركنوا إلى البناء الشكلي فحسب،بل استندوا على المنحى التداولي الوظيفي في معالجتهم الإعرابية، وقادتنا التوجيهات إلى أن التداوليات تهتم بكل أشكال التفاعل الاجتماعي،والتفاعل الخطابي،ودراسة المعطيات اللغوية المتعلقة بكل ملفوظ .

ومن المسائل التي لا تنفك عما نحن بسبيله أن توجهاتهم تهتم بالعملية التواصلية بأبعادها النفسية والاجتماعية، وتستظهر العلاقة بين النص والسياق؛ لتعيين مقاصد الخطاب، وتبيان علم الاستعمال اللغوي.

---

[١] روح المعاني ٣١٩/١.

[٢] التحرير والتقرير ٢٨٧/١.

ثبت المصادر

القرآن الكريم

١. الاتساع في المعنى، مقبول على بشير النعمة، ط١، دار عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ٢٠١١م.
٢. اجتهادات نحوية، تمام حسان، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٥م.
٣. الأحكام النحوية بين النحاة وعلماء الدلالة، دليلة فروز، ط١، دار عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ٢٠١١م.
٤. أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبدالرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٠م.
٥. إعراب القرآن للنحاس، تحقيق: زهير غازي زاهد، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٧م.
٦. الأفعال غير الواجبة عند سيبويه (الأمر والنهي) نموذجاً، نعيمة الزهري، ضمن كتاب التداوليات، علم استعمال اللغة.
٧. البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبن حبان، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، زكريا عبدالمجيد النومي، أحمد الجمل، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.
٨. البرهان في علوم القرآن، محمد بن بهادر عبدالله الزركشي، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩١م.
٩. البعد التداولي في كتاب سيبويه، مقبول إدريس، ط١، دار الفكر، بيروت.
١٠. البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ط٥، مكتبة الخانجي، ١٩٨٥م.
١١. التداوليات علم استعمال اللغة، عبدالسلام إسماعيل عليوي، ط١، دار عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ٢٠١١م.
١٢. التحرير والتنوير، محمد الطاهر عاشور، ط١، مؤسسة التأريخ، بيروت، ٢٠٠٠م.
١٣. التوليد الدلالي في البلاغة والمعجم، محمد غاليم، ط١، دار توبقال للنشر ١٩٨٧م.
١٤. الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت.
١٥. دراسات في اللسانيات العربية، عبدالحميد السيد، ط١، دار الحامد، الأردن، ٢٠٠٤م.
١٦. دلائل الإعجاز، الإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٥م.
١٧. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع والمثاني، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود بن محمود الالوسي البغدادي، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٣م.
١٨. شذور الذهب في معرفة كلام العرب، جمال الدين بن هشام الأنصاري، تحقيق: عبدالغني الدقر، الشركة المتحدة للنشر والتوزيع، سوريا، ١٤٠٤هـ.
١٩. شرح الكافية، محمد بن الحسن الاستراباذي الرضي، تحقيق: حسن بن محمد بن إبراهيم الحفظي، يحيى بشير مصطفى، ط١، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، ١٩٦٦م.
٢٠. شرح المفصل، موفق الدين بن يعيش، عالم الكتب، بيروت.
٢١. الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، أو الحسن بن فارس، تحقيق: أحمد صقر، دار إحياء الكتب العلمية، القاهرة، ١٩٧٧م.
٢٢. الصورة والصيرورة بصائر في أحوال الظاهرة النحوية ونظرية النحو العربي، نهاد الموسى، دار الشروق، ٢٠١٠م.
٢٣. العربية والإعراب، عبدالسلام المهدي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، ٢٠١٠م.

٢٤. الفعل اللغوي بين الفلسفة والنحو، يحيى بعيطيش، ضمن كتاب التداوليات علم استعمال اللغة.
٢٥. الفكر البلاغي عند النحويين العرب، عزام الشجراوي، ط١، دار البشير، عمان، ٢٠٠٢م.
٢٦. الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ط١، دار الجيل.
٢٧. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٨. اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، أحمد المتوكل، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠١٠.
٢٩. اللغة العربية معناها ومبناها ، تمام حسان ، ط٤، القاهرة، عالم الكتب، ٢٠٠٤.
٣٠. اللغة ومشكلات المعرفة، نعوم جومسكي، ترجمة: حمزة بن قبلات المزني، بيروت.
٣١. المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: علي النجدي ناصف، عبدالحليم النجار، عبدالفتاح شلبي، المجلس الأعلى، للشؤون الإسلامية ،القاهرة، ١٩٩٥م.
٣٢. المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي، تحقيق: فؤاد علي منصور، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
٣٣. مشكل إعراب القرآن، مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: حاتم صالح الضامن، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ.
٣٤. المعرفة اللغوية طبيعتها وأحولها واستخدامها، نعوم جومسكي، ترجمة وتعليق، حمزة بن قبلان المزني، بيروت.
٣٥. المقاربة التداولية للإحالة، يوسف السياوي، ضمن كتاب التداوليات علم استعمال اللغة.
٣٦. من البنية الجملية إلى البنية المكونية الوظيفية، المفعول في اللغة العربية، أحمد المتوكل، دار الثقافة للنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٧م.
٣٧. نظرية النحو العربي، في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، نهاد الموسى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠م.

الرسائل الجامعية

- اتجاهات البحث في قضية الإعراب عند اللغويين العرب المحدثين، رسالة ماجستير، خالد الجحيلان، قسم اللغة العربية، جامعة الملك سعود، ١٤٢١هـ.

الدوريات

- البحث اللساني والسيميائي، طه عبدالرحمن، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، جامعة محمد الخامس، ١٤٠١هـ.
- التواصل والحجاج، سلسلة دروس رقم (٢١٠)، كلية الآداب، أغادير، ١٩٩٣-١٩٩٤م.
- مبدأ الوظيفية وصياغة الأنحاء، أحمد المتوكل، مجلة المناظرة، س(٢)، ع(٣) ١٩٩٠م.
- المصطلح البلاغي في ضوء البلاغة الحديثة، تمام حسان، مجلة فصول، م(٧)، ع(٣-٤)، ١٩٨٧م.